

العدد الخمسون / يناير / 2021

الواقع الإنساني المعاصر بين وهم الحرية والاعتراب في فلسفة ماركوز

د. نجاح محمد صالح عبد الكريم
جامعة عمر المختار - قسم الفلسفة



العدد الخمسون / يناير / 2021

الواقع الإنساني المعاصر بين وهم الحرية والاعتراب في فلسفة ماركوز

ملخص الدراسة:

يقوم البحث بمناقشة تحليلات (ماركوز) للمجتمع الصناعي المتقدم ونموذج الأحادي البعد الذي يخدم مبدأ الواقع حيث تعمل تحليلاته على اكتشاف مواطن الزيف والتناقض في كل ممارسة احتواء وتنميط لحياة الإنسان وترسخ وهم الحرية، كيفية القدرة على غدرناك مفاهيم الحرية الحقه ومنه يغدو تأمل واقع الحرية ضرورة ومشروعاً، وان وظيفة التفكير الفلسفي اكتشاف ذلك.

الكلمات المفتاحية:

- الواقع الإنساني، الحرية، الاعتراب، فلسفة ماركوز.

Abstract:

The research discusses (Marcos) analyzes of the advanced industrial society and a one-dimensional model that serves the principle of reality, where his analyzes work to discover the areas of falsehood and contradiction in each practice containment and stereotyping of human life and entrench the illusion of freedom, how to be able to grasp the concepts of true freedom and from it becomes a reality and the necessity of freedom , And that the function of philosophical thinking discover it.

المقدمة:

تعتبر الحرية موضوعاً محورياً في كل تفكير فلسفي وأساساً لقيم كثيرة أبرزها المسؤولية وعلى ارتباط متين بالكرامة الإنسانية، كما أنها دعامة رئيسية أيضاً في المجتمعات الليبرالية خاصةً فكتيراً ما تتباهى الأنظمة السياسية لنيل الشرعية التمثيلية بمكسب احترام الحريات الفردية والجماعية وتعتبرها من الحقوق الاجتماعية والفكرية، إلا أن تأمل مراكز لجال الحرية في المجتمعات الصناعية المتقدمة يخالف ما يشاع عنها، فقد أشار إلى أن نموذج الحرية المتاح في هذه المجتمعات لا يتجاوز حدود الوهم والزيغ، وربط ذلك بتنميط عقلانية السيطرة لهذا المجال بما يتوافق وحساباتها، وعليه وجب التساؤل ما هي المبررات التي ارتكر عليها رأي مراكز ومدى موضوعيته في الفصل بين توهم الحرية أو وجودها الحقيقي؟ والإجابة عن هذا السؤال ستتم من خلال اتباع منهج تحليلي وصولاً على خاتمة نعرض فيها نتائج الدراسة.

1- وهم الحرية:

يتميز النظام العام في المجتمع الصناعي المتقدم -من جهة نظر (ماركوز)- بقدرته على توجيه كل النشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهو نظام مغلق، وإدارته تحكم التسيير، ورقابته مطلعة على دقائق الأمور وأيدولوجيته السيطرة، فكل المبادرات توجه نحو تثبيت ما هو قائم، حيث لا سمح لاحتمالات التغيير أو إحداث اهتزاز في الاتجاه العام لكل النظام، وقد بلغ الترتيب إلى حد أن لا مجال لإفلات احتمالات غير متوقعة تحالف مسار نمط الحياة المشكل ولا سبيل لرفض نظام الأشياء القائم، وقد أمكن لهذه العقلانية أن توفر جميع الضروريات والحاجيات وبصورة يطبعها الرفاه والوفرة ((ومن ثم فإن انجازات نظام السيطرة تبرر هذا النظام، ويتبنى الأفراد القيم القائمة باعتبارها قيمهم هم بالذات ويصبح التوافق تلقائياً مستقلاً نابعاً عن الذات وتبدو إمكانية الاختيار بين عدة ضرورات اجتماعية هي شكل الحرية نفسها [1] ، بهذه الكيفية يكشف (ماركوز) صورة الحرية في إطار مجتمع محكم التنسيق بحيث لا يترك للإنسان إلا أن يختار ما يريده المجتمع، فهو المسؤول عن توفير احتمالات الاختيار وكأن الأمر يعكس جبرية خفية، تحركها إرادة ذكية تنتهي إلى جعل كل اختيار ليس إلا تعبيراً عن عبودية مقنعة يفرضها المجتمع القائم على الإنسان، فما كان في السابق استعباد بالقوة أصبح استعباد إرادي، فطاق الحرية المتاحة لا يتجاوز الاختيار بين الأدوات التي تنتجها التكنولوجيا وبذلك فإن هذا النمط من الحرية موجه، ويكون الإنسان فيه واهماً عند كل اختيار ((فأين يجد الفرد وسيلة للتعبير عن تقرير مصيره وعن استقلاله الذاتي؟ في حق قيادة سيارة، في تناول المعدات الميكانيكية وتقليبها بين يديه، في شراء بندقية، أو في أن يبلغ عدداً ضخماً من المستمعين برأيه مهما كان في هذا الرأي من عدوانية)) [2] ، فإذا كانت الاختيارات قد ضببت سلفاً وبشكل يضمن انسجامها مع مبدأ الواقع القائم، كما يحقق اندماج الفرد ضمن مسار المجتمع، فلا يعكس ذلك إلا مجالاً تنعدم فيه الحرية، ولأن ظاهر الأشياء يحتضن نقيضاً مستتراً، فإن ما يحياه كل فرد من اختيارات ليس إلا وهماً، فالرقابة الاجتماعية الضمنية توجه الفرد نحو غايات محددة، لا يمتلك حريته في استبدالها، وإذا كان له أن يختار فحريته تتمثل في الاختيار من تشكيلة محصنة ومفروغ منها، وسيكون اختياره في التحليل الأخير نوعاً من الخضوع والعبودية [3] وتبرز هنا صورة الحرية المتاحة في ظل النظام القائم، بحيث لا تعبر عن حقيقة الحرية بل يعكس وهماً فحسب.

لقد رأى (ماركوز) أن الإنسان لا يعي قيوده بل العكس هو السائد، فهو يتوهم إذا اختيارته نابعة عن إرادة واعية وحررة وتدرك الغايات في حين أن كل عناصر تكوين شخصيته قد تم تنميطها وتشكيلها على الطاعة العمياء، التي ألفت الانبهار أمام

العدد الخمسون / يناير / 2021

منجزات هذا المجتمع، وأمتد ذلك ليشمل كل عواطفه، وفي كل هذا التحوير تختفي المظاهر المعهودة التي تمارس المنع ((ومن ثم فإن التقدم الرأسمالي لا يقيد البيئة الحرة، والحيز الحر للوجود الإنساني، فحسب، بل هو أيضاً يقيد الرغبة في مثل هذه البيئة والحاجة إليها)) [4].

تقود تحليلات (ماركوز) للمجتمع الصناعي المتقدم والتي ابدى من خلالها حجم اللاعقلانية والنموذج الأحادي البعد الذي يخدم مبدأ الواقع، وما لمقولات السيطرة والهيمنة من قدرة على النفاذ إلى أعماق الحياة الإنسانية، وقدرة النظام القائم على التخفي والاقناع من خلال الوفرة، ونمط الحياة الاستهلاكي، إلى رؤية (ماركوز) لموضوع الحرية وانعدامها بهذا المجتمع، وإن التمنيظ والتشكيل المستمر لوعي الإنسان جعل فيه وعياً واهماً ورائفاً، حيث أصبح ما هو قيد يعكس مناخ الحرية والاختيار، ولذلك يتطلب الأمر تحليلاً أكبر لمعرفة حقيقة الحرية في التصور الماركوزي وحقيقة الحرية في إطار المجتمع الصناعي المتقدم بين الوهم والحقيقة، وتعمل تحليلات (ماركوز) على اكتشاف مواطن الزيف والتناقض في كل ممارسة احتواء أو تمنيط لحياة الإنسان ويكفي إن دفع إيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم هو إحكام السيطرة، إدراك أن مظاهر الحرية الفردية والعامية ليست إلا ما يسمح به، ومنه فتصور (ماركوز) لموضوع الحرية متضمن في انتقاداته لمظاهرها ضمن ما هو قائم وإذا كان (ماركوس) يعتقد أن الواقع هو لذي يحدد الوعي، فإن وقع هذا الاستنتاج يجعل (ماركوز) يدرك مدى انعدام الحرية في المجتمع الصناعي المتقدم، حيث الفكر التوتاليتاري قد هيمن وسيطر على كل مظاهر الحياة الفردية والجماعية، وإن الوعي المتاح لا يزيد إلا في ترسيخ وهم الحرية، ومنع القدرة على إدراك مفاهيم الحرية الحقة ومنه يغدو تأمل واقع الحرية ضرورياً ومشروعاً، وأن وظيفة التفكير الفلسفي اكتشاف ذلك. وقد لاحظ (ماركوز) اعتماد إيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم، آليات لتبرير ضرورة القمع، لتحقيق أهداف ضرورية للصالح العام، خاصة الجانب الأمني والدفاع عن نظام الحياة الذي يوفر لهم الرفاء، أو محاربة أعداء يتم تحديدهم مع الإبقاء على شبح الحرب حاضراً دائماً، فتوقع الخطر في هذه الحالة يوهم وعي الإنسان بضرورة القمع ومشروعيته لكنه يفقد مع هذا الوهم حريته تحت الاقناع بأن التهديد حقيقي وما الحرب إلا شبحاً، وبذلك "وفي كل مجهود يبذل لخلق شروط رفض فعال للنظام، ينبغي الحذر من تناسي الحقيقة الواقعة، وهي أنه ليس في مستطاع أي فرد أو أي فئة أن يكونا حرين في مجتمع غير حر" [5] ، فالمجتمع الذي يبيح القمع ويستبيح الإنسان، هو مجتمع بعيد كلياً عن ادعاء توفير مناخ الحرية، وقد حرص (ماركوز) على إبراز ذلك، وما تبني عقلانية السيطرة، والتخفي خلف فعالية مبدأ المردود، القدرة على الإنتاج الوافر الذي يلي متطلبات الإنسان المتجددة، إلا أدلة تضاف إلى الواقع الذي تسلب فيه حرية باسم الحرية، وشتان بين الواقع والادعاء هذا الأخير الذي أضحى تقليداً تحسن تسويقه وسائل الإعلام التي تمنح مشروع الهيمنة الدعاية الكافية بإبراز محاسنة الموهومة، غير أنها في تصور (ماركوز) وسائل سيطرة، لأن "المجتمع الصناعي المتقدم يمكن أن يكون مجتمعاً يتمتع بأرفع المستويات المعاشية إلا أنه يبقى مجتمع السيطرة الكلية فالزيادة في الإنتاج سوف تبقى مقرونة بفقدان الحرية" [6].

إن إدراك تصور (ماركوز) لواقع الحرية المتاح يحصل بالعودة إلى ممارسات عقلانية المجتمع الصناعي التي تعمل على تشكيل المستمر لأبعاد الوجود الإنساني بحيث تنتهي إلى مصب واحد هو الإندماج والانسجام مع الوحدة الكلية للنظام العام في المجتمع "الفرد كما يستنتج ماركوز ليس له في المجتمعات الغربية معياره الخاص في الاختبار، شأنه شأن العبد الذي له الحرية فقط في

العدد الخمسون / يناير / 2021

اختياره سيده، وحرية الاختيار هذه لا تلغي لا السادة ولا العبيد، وإنما هو محكوم بقوة الرقابة التي تطرح أمامه الحاجات وإذا كان الفرد يحدد تلقائياً حاجات المفروضة عليه، هذا لا يعني أنه سيد نفسه وإنما يدل فقط على الرقابة الناجحة" [7].

ولعل فهم تصور (ماركوز) للحرية، يقتضي ضرورة الانتباه إلى خيوط رفيعة تربط بين مبدأ الواقع الذي حددته عقلانية المجتمع القائم، ومبدأ ما يجب أن يكون الذي يكشف تطلعات (ماركوز) واستشرافه لواقع مثل يتجاوز البعد الواحد المائل في الواقع، ومن الضروري أيضاً الفصل بين تحليل (ماركوز) للواقع القائم وانتقاده إياه فالأول كاشف، أما الانتقاد فيتضمن جوهر أفكاره، لذا جاء موقفه من نموذج الحرية التي تسمح به عقلانية السيطرة موقفاً رافضاً، فليست الحرية في اختيار ما تم تحديده، بل هي اختيار بطوعية واستطاعة فعلية، أو بمعنى آخر ((أن الحرية المنظمة من قبل مجموع إضطهادي، يمكن أن تصبح أداة سيطرة قوية، فالحرية الإنسانية لا تقاس تبعاً للاختيار المتاح للفرد وإنما العامل الحاسم الوحيد في تحديدها هو ما يستطيع الفرد اختياره وما يختار)) [8]

يقيم (ماركوز) ربط بين نموذج الحرية المتاح في المجتمع الصناعي وكونه أداة سيطرة، وبذلك فإن اختيارات الإنسان ليست نابعة من إرادة حرة، بل موجهة ومحددة، ولأن عامل التوجيه والتحكم والسيطرة قائم، فإن ما يبدو حرية ليس إلا عبودية مقنعة، ويضيف أيضاً أن قدرة المرء على اختيار سادته، والاختيار بحرية بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات لا يعني أن المرء الذي يختار هو كائن حر مادامت الرقابة الاجتماعية تنقل بوطاتها على حياته الكادحة القلقة، ومادام هو نفسه مستلباً [9]، وحتى إن عرضت صورة الإنتاج التي تفضي إلى تحقيق الوفرة، وتوفير ضروريات الحياة على أنها مظهر من مظاهر الحرية، إلا أن الزيف الذي يطبعها أكبر من أن يداري، فالتعمق في معرفة أبعادها يجد إنها تصادر الحرية، ومنه يصبح مناخ الحرية زائفاً وقديماً ويرى ماركوز أنه ((في الوقت الذي تشدد فيه التكنولوجيا قبضتها وهيمنتها تدريجياً على الطبيعة نجد أن الإنسان يشدد قبضته وهيمنته تدريجياً على الإنسان وبذلك يخسر الإنسان الحرية التي هي الشرط الضروري للسبق للتححر)) [10].

ويتهيئ (ماركوز) إلى اعتبار أن الوضع العام السائد في المجتمع الصناعي وضعاً لا يعكس فضاء الحرية المطلوبة، وأن ما يروج له ليس إلا زيفاً ومهماً، وتحويل ضبطته عقلانية السيطرة، وتبرير ذلك وجود نظام إداري مغلق يشرف على تيسر كل مجالات الحياة، وما شروط العمل وصورته حيث الإنسان العامل يعيش إغتراباً مع الذات ومع وسائل الإنتاج إلا تعبير كافي عن غياب الحرية.

2- اغتراب الإنسان:

لقد أولى (ماركوز) لظواهر الاغتراب اهتماماً كبيراً من حيث التحليل والنقد، ليرز أنها حالة من وعي الإنسان بمدى ضالته أمام هيمنة النظام الاجتماعي القائم ورغم وعيه بذلك لا يبدي مقاومة أو إرادة تصحيح وتغيير، وفهم الاغتراب يفترض دفعاً ((وصف لحال الإنسان الواقع تحت هيمنة سلطة تسلبه ذاته وما هيته وإمكانياته، وتدفعه إلى واقع مغاير لحقيقته تماماً)) [11]، حتى وأن اختلفت وجهات نظر المفكرين لطبيعة القوة أو السلطة التي تسلب الإنسان، وتحيله إلى اغتراب مع ذاته ومع الآخر المختلف، والبحث في الأسباب التي تجعل من الاغتراب نتيجة حتمية يكشف عن مدى ضلوع آليات الإستلاب التي تمارس على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وبصورة أشمل على المستوى الثقافي، لتتحول حالات الاغتراب الحاصلة إلى مناخ ليسمح بممارسة مستمرة لاستلايات ليست بالتقليدية في تصور (ماركوز)، فالوضع القائم اقتصادياً يفرض وضع سياسياً

العدد الخمسون / يناير / 2021

واجتماعياً، ومنه محضور الاستلاب على مستوى ما يستدعى امتداده على مستويات أخرى، وبذلك يكون اغتراب الإنسان على الحده التي تطل كل ابعاده، ومتى عدنا إلى مراتب التقدم النقي والرفاه الذي يوفره مجتمع التصنيع المتقدم، ونلاحظ أن الأداء السياسي موجه أيضاً بإحكام نحو استلايات تطبع الحياة الاجتماعية ليهيمن على كل المنتج الثقافي، والمميز في عرض (ماركوز) لظاهرة اغتراب الإنسان ضمن مجتمع الرفاه هو أن آليات الاستلاب المعتمدة ليست معهودة، وأن الإنسان المندمج في إطار المجتمع القائم وإن إدراك ضياعه واغترابه، فهو نفسه الذي يدافع عن استمرار وضع الاستلاب لديه فالمجتمع القائم يستنفره دفاعاً عن مكتسباته الوهمية، وقد تم تشكيله وتنميته ليصبح متعلقاً وعالقاً بضمية السلع وتلبية رغباته الزائفة، ويجعل علاقات الناس خاضعة لمعيار الأشياء والسلع فمتى تجسد هذا الغرض تضاعفت أبعاد وجود الإنسان، ليحل التشيؤ الموقع الرئيسي في تحديد العلاقات العامة بين الأفراد مما يزيد من اتساع الهوة بين الإنسان وذاته ومجمعه إن الاغتراب نتيجة قصدية.

الخاتمة

أن تأمل (ماركوز) لحال الحرية في المجتمعات الصناعية المتقدمة يخالف ما يشاع عنها، فقد أشار إلى أن نموذج الحرية المتاحة في هذه المجتمعات لا يتجاوز حدود الزيف، ذلك أن النظام العام في المجتمع الصناعي المتقدم يتميز بقدرته على توجيه كل النشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ورقابته مطلعة على دقائق الأمور وأيديولوجيته السيطرة، وقد أمكن لهذه العقلانية أن توفر جميع الضروريات والحاجيات وبصورة يطبعها الرفاه والوفرة، فناطق الحرية المتاحة لا يتجاوز الاختيار بين الأدوات التي تنتجها التكنولوجيا، وأن الوضع العام السائد في المجتمع الصناعي وضع لا يعكس فضاء الحرية المطلوبة، وإن التنميط والتشكيل المستمر لوعي الإنسان جعل منه وعياً زائفاً، وأن دفع إيديولوجية المجتمع الصناعي المتقدم هو إحكام السيطرة وأن مظاهر الحرية الفردية والعامية ليست ألا ما يسمح به، لذا جاءت موقف (ماركوز) من الحرية التي تسمح به عقلانية السيطرة موقفاً رافضاً، فليست الحرية في اختيار ما تم تحديده بل هي اختيار بطوعية واستطاعة فعلية، بحيث تصبح اختيارات الإنسان نابعة من إرادة حرة وليست موجهة ومحددة طبق عقلانية إنتاجية تربط بين الوفرة والحرية.

العدد الخمسون / يناير / 2021

هوامش البحث

- (1): ماركوز، هربرت. (1972). "نحو التحرر - فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد-" ترجمة: إدوارد الخراط، بيروت: منشورات الآداب، ط1، ص21.
- (2): ماركوز، هربرت. (1972). "نحو التحرر - فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد-" ترجمة: إدوارد الخراط، بيروت: منشورات الآداب، ط1، ص21.
- (3): إبراهيم، عبد الله. (1997). "المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية - إشكالية الكون والتمركز حول الذات-" بيروت: المركز الثقافي الغربي، ط1، ص348.
- (4): ماركوز، هربرت. (1972). "نحو التحرر - فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد-" ترجمة: إدوارد الخراط، بيروت: منشورات الآداب، ط1، ص21.
- (5): ماركوز، هربرت. (ب.ت). "الثورة والثورة المضادة"، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ص60.
- (6): أحمد، قيس هادي. (1980). "الإنسان المعاصر عند هربرت ماركوز"، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، ص151.
- (7): إبراهيم، عبد الله. (1997). "المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية - إشكالية الكون والتمركز حول الذات-" بيروت: المركز الثقافي الغربي، ط1، ص348.
- (8): ماركوز، هربرت. (1988). "الإنسان ذو البعد الواحد"، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط3، ص43.
- (9): ماركوز، هربرت. (1988). "الإنسان ذو البعد الواحد"، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط3، ص44.
- (10): ماركوز، هربرت. (1988). "الإنسان ذو البعد الواحد"، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط3، ص264.
- (11): عبد السلام، سهير. (2003). "مفهوم الاغتراب عند هربرت ماركوز"، مصر: دار المعرفة الجامعية، ص22.

العدد الخمسون / يناير / 2021

قائمة المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم، عبد الله. (1997). "المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية - إشكالية الكون والتمركز حول الذات -" بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1.
- 2- أحمد، قيس هادي. (1980). "الإنسان المعاصر عند هيربرت ماركوز"، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1.
- 3- عبد السلام، سهير. (2003). "مفهوم الاعتزاز عند هيربرت ماركوز"، مصر: دار المعرفة الجامعية.
- 4- ماركوز، هيربرت. (1972). "نحو التحرر - فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد -" ترجمة: إدوارد الخراط، بيروت: منشورات الآداب، ط1.
- 5- ماركوز، هيربرت. (1988). "الإنسان ذو البعد الواحد"، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط3.
- 6- ماركوز، هيربرت. (ب.ت). "الثورة والثورة المضادة"، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب.